

الخبيثات - 2007-11-22

83- نجيب محفوظ: قراءة في أحلام فترة النقاثة

الحلم (9)، والحلم (10)

الحلم (9)

على اريكة في حديقة المنزل الصغيرة جلست أختي تتأمل
ضدعا يسبح في القناة التي تروى الحديقة: وانتشيت بالنسيم
الرفيق وعناقيد العنب المدلاة من التكميبة.

وسألت أختي ماذا تنتظرين؟

وقبل أن تجيبني قلت: من الأفضل أن تجلس في الحجرة لنسمع
الفونوغراف وتبادلنا نظرة اختيار، ثم انتقلنا إلى الحجرة
وازداد الجو صمتا، وحتى النسيم لم يعد معنا ونظرت إلى أختي،
فإذا بها قد تحولت إلى الممثلة السينمائية جريتا جاربو، وهي
مملتي المفضلة وطرت من السعادة بغير أجنحة وملا السرور
جواغي غير أن ذلك السحر لم يدم طويلا. وأردت أن أستعيد
المعجزة السحرية مرة أخرى ولكن أختي رفضت الذهاب معي،
فسألته عن سبب الرفض فقالت:

- أمي

فقاطعتها قبل أن تتم عبارتها

- إنها لا تدري

فقالت بيقين

إنها تدري كل شئ

وشعرت بأن الحزن غشى كل شئ كأنه شابورة مفاجئة.

القراءة

الاقتراب من هذه المنطقة حتى في تشكيلة حلم، حتى من خلال شطح
الإبداع، هو أمر صعب دائماً، برغم أنه ضروري، وما لم نتناول
إشكالية العلاقة بالحارم إبداعياً من منطلق التطور، قبل وبعد
سجن المنظومة الأدبية الفرويدية التأويلية، (دون رفضها
كلية) فقد تظل منطقة مخفية في الظلام تحت رحمة الكبت من ناحية،
والتفسيرات التقليدية المعادة من ناحية أخرى.

البداية بالضدع، وصلتي - متحيزا لفكرى التطورى- أنها
تذكرة (حذسية غير مقصودة) بالتطور، وهذا ما سمح لى أن أمر

بمراحل طويلة طويلة بين الأحياء عموماً، ثم مع الإنسان، قبل أن أصل إلى قراءة ما يسمى الآن "نحو الأسرة". نحن نعرف كيف أن "النحو" Grammar هو الذى يحدد "إعراب" وتشكيل موقع اللفظ فى الجملة، بما فى ذلك المسموح والمنوع (من الصرف وغير الصرف). بنفس القياس اصطلح الباحثون مؤخراً على اعتبار تنظيم موقع الفرد فى أسرته بمثابة "نحو" يضع التشكيل على الأفراد، ويقرر الجائز و"المنوع"!

لابد وأن أذكر هنا أن لى إجتهدات متعددة فى إعادة النظر فى تفسير ما، يسمى عقدة أوديب والتنظير البديل بغير ما جاء به فرويد، وأهمية هذا الحلم هنا - من ناحيتي- شخصياً: علما ونقداً- أنه يدعم بعض ما ذهبْتُ إليه فى مسألة العلاقات المحارمية مما لا مجال للاستطراد إليه هنا/الآن.

محفوظ تناول المسألة برقة مناسبة، فمن ناحية جعل النداء يأتى من الراوى، لكنه عاد يثبت أن **الاختيار كان متبادلاً**، وهذا بعض ما تناوله تنظيرى الخاص لتجاوز "نحو الأسرة"، وإن كان النداء الأغلب - فى خبرتى - يبدأ من الأم (لا شعورياً أكثر)، وفى نفس الوقت يكون الاختيار متبادلاً فى النهاية، لاحظ التعبير شديد الكثافة والدلالة هنا: **"وتبادلنا نظرة اختيار".**

محفوظ فى الحلم (الإبداع) بدأ قادراً على أن يدور حول حكاية المحارم هذه حين أحلَّ حليلاً محلَّ مُخرَمة، هكذا حلت جريتا جاربو محل الأخت، ثم أنه جعل الراوى يتجنب ذكر تفاصيل ما تمَّ بينهما حتى بعد هذا الإحلال، لكنه يعلن مصاحبات اللقاء ونتيجته: **الفرحة مسحوراً بالنشوة**، إلا أن هذا اللقاء الساحر لم يدم طويلاً. ولم يذكر الحلم صراحة متى اختفت جريتا جاربو لتظهر الأخت من جديد.

التي دعاها الراوى فى الجزء الثانى من الحلم كانت أخته وليست ممثله المفضلة، دعاها بما هى، وليس كبديلتها، ليستعيد المعجزة السحرية، فترفض، دون أن يعلن أنها شاركتها الجولة الأولى الساحرة، ثم ها هو الراوى يدعنا نستنتج ما نرى، وهو يعلن سبب الرفض: إنها الأم (وليس الأب) التى تعرف كل شئ.

توظيف الأم (وهى الأقل سلطة فى ثقافتنا) للرفض سمح لى أن أتحدى فى تدعيم فروضى الخاصة البديلة عن عقدة أوديب، والتى تشير إلى أن **النداء المحارمى يأتى من "لا شعور" الأم، وليس أساساً: من تنافس الإبن مع الأب عليها.**

هل سبب رفض الأم وخوف البنات هنا هو تطبيق "نحو الأسرة" الذى يحدد المنوع من المتاح؟ أم أنه غيرُهُ ضمنية من الأم نحو الأخت؟ أم الاثنان معاً؟

الحزن الذى انتهى به الحلم له أكثر من قراءة، فهو لا يشير أساساً إلى الشعور بالذنب (وإن كان لا يستبعده) وإنما يبدو أنه نتج ابتداءً عن إحباط الرغبة المحارمية، حتى ولو تمت تحت ستار إبدال سحرى.

ومع الحزن تنزل ستارة الوعي الظاهر (شابورة مفاجئة)
ليقوم الكبت بدوره الضروري.

الحلم (10)

جمعنا الصداقة والنشأة وتواعدنا في تلك الحارة وذبول
الليل تهبط. لا هدف لنا إلا الانشراح باللقاء والاستسلام
للمزاح والضحك على طريقة القافية.

وتبادلنا النكات وأخذنا نتحول إلى أشباح في الظلام،
وتعارفنا بأصواتنا ولم نكف عن المزاح والقافية وانطلقت
قهقهاتنا ترج الجدران وتوقظ النيام. الحارة متعرجة، ونحن
نتقارب حتى لا نذوب في الظلمة، وكلما تمادينا في الحيرة غاليينا في
الضحك، وبدأنا نتساءل حتى نجد خلاصنا في ميدان أو شارع كبير.

وذكرنا أهدنا بأن الملكة الفرعونية التي أرادت الانتقام
من الكهنة الذين قتلوا زوجها دعتهم إلى مكان يشبه هذا
الذي يغيطون فيه، وسلطت عليهم المياه، وما كاد يفرغ من
حكايته حتى هطلت السماء علينا بقوة غير معهودة، وأسكتنا
الرعد ومضت المياه ترتفع حتى غطت أقدامنا وزحفت على
سيقاننا وشعرنا بأننا نغرق تحت المطر، في ظلام الليل.

ونسبنا نكاتنا وضحكاتنا ولم يعد لنا من أمل في الخلاص
إلا أن نظير في الفضاء.

القراءة

هذا حلم تشكيلي جميل

جذبتني الصورة والحركة حتى كدت أنسى المحتوى المروي حكيًا
لفظيًا.

حضرت في وعيي النقدي صور من ليالي ألف ليلة محفوظ ، ومن
حكايات خرافية هانز كريستيان أندرسون للأطفال، ومن
حواديت طفولتي ، هذا حلم مُبذعٌ طليق، بعكس الحلم "8" الذي
وصلني منذ البداية "علمًا لا حلمًا"!

في الحلم (الابداع) ينكسر حاجز الزمن ، وقد شاهدنا كيف
تلاشى الزمن في حلم (6) حين تلاشى الحاجز بين الموت والحياة ،
واختصرت ستين عاماً، بين الدفن والعودة، إلى لحظة واحدة ،

هنا: الحلم يكسر حواجز أخرى كثيرة: بين الظاهر والخفي،
بين الحاضر والتاريخ ، ثم تتداخل فيما بينها: السماء
والمياه والفضاء .

تتحول العواطف البشرية في انسيابات مفاجئة وغير مفاجئة
، ففي البداية نتنقل بين المزاح والضحك والسخرية، ثم يتراجع
كل ذلك جزئياً - ليفسح مكاناً للحيرة ومعنى الخلاص (برغم
استمرار غلبة الضحك)، لينتهي التهيؤ الواجدي إلى الصمت
والخوف من الغرق والأمل في خلاص أقوى وأبعد من مجرد اللجوء
إلى شارع متسع أو ميدان ، خلاص بالطيران في الفضاء .

الزمن يتحول في الحارة المتعرجة وذبول الليل تهبط، إلى زمن الفراغة، فيحضر جيروت الملكة وهي تعاقب الكهنة، ليصبح التاريخ حاضرا ماثلا يهدد الثلة الحاملة الشاطحة الساخرة الفزحة، يهددها بالإغراق .

إلى هنا ونتوقف عن متابعة تشكيل الزمن، والنقلات، والحركة وكسر الحواجز **لننتقل إلى المحتوى.**

لم أجد في نفسى ضرورة لذلك محتمياً بتركيز "جاك لاكان" على الدال أكثر من المدلول، وأيضا اعتماداً على أن الصورة والحركة هما الأساس في طبيعة الحلم "بما هو" قبل أن يكون رمزاً أو حكياً وكل ذلك يسمح بتجاوز المحتوى إنه يمكنك أن تستنتج من الحركة والنقلات والتقلبات، خصوصاً إذا وصل الإبداع إلى أن يقلب شخوصه أشباحاً تتعارف بالأصوات، وتحتمى ببعضها حتى لاتذوب في الظلمة، كل ذلك يسمح بتقديم الشكل على المحتوى، حتى نتأكد أهمية وأسبقية الدال عن المدلول.

وبالرغم من كل ذلك فثمة إشارات موجزة من إجماعات المحتوى فضلت أن أصيغها في التساؤلات التالية:

*هل الخلاص من لعبة التلاشى في الظلام يكون إلى ميدان أو شارع كبير، أم العكس؟

عندى أن فراغ واتساع الميادين هو الذى يدفع للاحتماء - حتى لعباً- بذبول الظلام، في حارة ضيقة!!؟

ثم:

هل الطيران في الفضاء هو الذى يمكن أن يحمينا من الغرق فيما نحن فيه، بما في ذلك قهر وإرهاب السلطات؟ أم أن ثم طريقاً آخر علينا أن نسلكه في مواجهة القهر والظوفان معاً؟

الحلم - الإبداع - يكشف ولا يوصى،

وعلينا نحن أن نتلقى ونتحمل مسئولية ما يصلنا.

وأخيراً:

وصلنى أنه لم يجمع بين أفراد هذه الثلة الظرفية إلا المرج والسخرية وحكى التاريخ، ولكن حين واجهوا القهر والخطر، لم أرمهم - برغم ضمير الجمع - عصبة معاً.

هذا حلم فيه من سحر الظلام، وعبث الصحبة، وألعاب الهرب، ما يؤكد أولوية الحركة والصورة في إبداع الأحلام، قبل محتواها ورموزها.

كما أن فيه من الطلاقة والمراوغة وأحلام الهرب، ما يمكن أن يوقظ فينا الموقف المناسب لنكمل أو نراجع أو نترجع.